

النقد الثقافي



إعداد ميداني بن عمر

بوادر الظهور

كان من بوادر ظهور النقد الثقافي وتطوره الظهور الجديد و الحديث للدراسات الثقافية خلال فترة السبعينيات خاصة في بريطانيا ، وذلك منذ أن تأسس مركز برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة (1964م) ولقد تطور هذا المركز وتحول تحولات عديدة إلى أن انتشرت عدوى الاهتمام النقدي الثقافي في كامل أنحاء المعمورة . ومن خلالها أصبح النقد الثقافي مظلة تحوي عدة مناهج بعد بنيوية تنطلق من تعريف كليفورت غيريتز للثقافة بوصفها إنتاج آليات الهيمنة والإخضاع بإسقاط سماتنا الذاتية على الغرباء حتى يتحول الآخر إلى صورة مستنسخة عن الأننا وليس فقط مجموع الأعراف والعادات والتقاليد. وهو ما يوازي مفهوم المؤسسة الرسمية التي تتحكم في الخطاب ورعيته، وتستهدف إخضاع المخالف وإسكاته وتدجين المعارض وإجماعه ضمن تراتبية معينة للتحكم، دون وعي من المستقبل الثقافي.

غايته

الدراسات الثقافية جاءت لكي تفتح الأفق أمام انغلاق المناهج الشكلانية والبنوية حول أنساقها، الذي أفضى بالنقد إلى مسالك مسدودة، إلى أن انفتحت الدراسات ما بعد الحداثية على السياقات الخارجية للنصوص داخل الأنساق كما يذهب إلى ذلك باحث التحليل الثقافي الغربي (ستيفن غرينبلات (Stephen Greenblatt حين يصل إلى أنه " "في النهاية، لا بدّ للتحليل الثقافي الكامل أن يذهب إلى ما هو أبعد من النصّ؛ ليحدّد الروابط بين النصّ والقيم من جهة، والمؤسّسات والممارسات الأخرى في الثقافة من جهة أخرى".

فالتحليل الثقافي إذ يستوعب كل المناهج السابقة ويوقف دعائمه المفهومية على مرتكزاتها يثب فوق فعاليتها وأطرها الإجرائية متسائلا ومفككا وفاضحا لأنساقها المضمرة التي تبدو رجعية أمام تطور النسق الظاهر للنصوص ولم تكن في مستوى تطلع الإنسان الجديد.

مجالاته

يروم النقد الثقافي العبور إلى المناطق الثقافية الحرجة داخل أو خارج الخطابات والظواهر التي كانت هذه المناهج القديمة تأنف من الخوض فيها ، وتتورع مما تصفه بالسقوط المُسفّ من علياء الثقافة الرفيعة إلى حضيض الثقافة الجماهيرية الشعبية الوضيعة - في نظرهم - . حتى أن ناقدا مثل (جوناثان كيلر Jonathan Culler) راعه ما آل إليه مصير مناهج النقد الحديث متسائلا عما يحدث في الحقل النقدي ، " حين يلحظ المرء أساتذة الأدب ينصرفون عن دراسة (ملثون) إلى دراسة (مادونا) وعن دراسة (شكسبير) إلى دراسة الدراما التلفزيونية (soap opera) ، ويرى البروفيسور الفرنسي يكتب عن السجائر، وزميله الأمريكي يكتب عن السمنة... الخ.... هذه الدراسات الثقافية التي كسرت مركزية (النص) ولم تعد تنظر إليه بما أنه نص.. لقد صارت تأخذ النص من حيث ما يتحقق فيه وما يتكشّف عنه من أنظمة ثقافية.

النسق الثقافي

استلهم عبد الله الغدامي فكرة مراجعة النموذج الاتصالي الشهير لرومان جاكوبسن ذي العناصر الستة (المرسل و المرسل إليه و الرسالة و السياق و الشفرة و وسيلة الاتصال) مقترحا إضافة عنصر سابع له أهمية لا ينبغي التغاضي عن دورها في استهلاك وتلقي واستقبال أي بث خطابي وهو " العنصر النسقي ... بهذا نتيح مجالا للرسالة ذاتها [والكلام للغدامي] بأن تكون مهياة للتفسير النسقي ... وفي هذا ستكتسب اللغة وظيفة سابعة هي الوظيفة النسقية إضافة إلى و سائلها الست الأولى ... (التعبيرية والشعرية و الاتصالية والمرجعية والتبئية والوظيفة الشارحة)

قناة

رسالة

مرسل

مرسل

إليه

سياق

شفرة

العنصر النسقي

تبيہة

اتصالية

شعرية

تعبيرية

المرجعية

الشارحة

تمظهرات النسق الثقافي

يتحدث عبد الله الغدامي عن مجاز كلي يتجاوز مجاز اللفظة والجملة، إلى الخطاب والظاهرة الثقافية بأكملها ، وحين يتحدث عن التورية الثقافية بدل البلاغية ، فهو يستفيد من ازدواجية طبيعة طرفي كل منهما ، معرجا عن الحديث عن دلالة نسقية تتجاوز الدلالة الصريحة التوصيلية ، والدلالة الجمالية الأدبية، إلى الحديث عن الجملة الثقافية التي هي في مقابل الجملتين الأدبية والنحوية ليصل إلى أهم إشارة في هذا المضمار وهو « أن في كل ما نقرأ وما ننتج وما نستهلك هناك مؤلفين اثنين أحدهما المؤلف المعهود مهما تعددت أصنافه كالمؤلف الضمني والنموذجي والفعلي، والآخر هو الثقافة ذاتها، أو ما أرى تسميته بالمؤلف المضمّر... وهو المؤلف النسقي» .

آلية اشتغال النسق

رأى (كلنر) أن هناك أنماطا من الأنساق الثقافية جرى تثبيتها لمجرد أنها جماهيرية وإمتاعية. فالمتعة هي الطاقة الكمونية الإغوائية التي تُحكم من خلالها الأنساق سيطرتها على أنماط التلقي والاستهلاك الجماهيري العريض لفن معين دون آخر، وجنس أدبي دون غيره، وطقوس وعادات ومنتجات ثقافية دون سواها. وما المتعة إلا الظاهر الجمالي الذي يخفي تحته قبحيات الأنساق، فيما اصطلح عليه الغدامي بلفظ (التشعرن)، باعتبار أن الشعر العربي الفائق السّحر، الكامل البيان، الرائع الإتقان كان في تاريخ ثقافتنا العربية أداة إمتاع وإغواء مأكرة، ومخادعة أسفرت عن أسقام ثقافية مزمنة. كرسّت أنساق التحيز والهيمنة.

خصائص النسق الثقافي

- أ- يتحدد النسق عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمّر ويكون المضمّر ناقضا وناسخا للظاهر.
- ب- يقتضي أن نقرأ النصوص والأنساق قراءة خاصة، أي أنها حالة ثقافية، والنص هنا ليس فحسب نصا أدبيا أو جماليا، ولكنه حادثة ثقافية أيضا .
- ج- والنسق من حيث هو دلالة مضمرة فإن هذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلف، ولكنها منكتبة ومنغرسة في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء.
- د- والنسق ذو طبيعة سردية، ويتحرك في حبكة متقنة، ولذا فهو خفي ومضمّر، وقادر على الاختفاء دائما، ويستخدم أقنعة كثيرة، وأهمها ...قناع الجمالية اللغوية .
- هـ- والأنساق الثقافية هذه أنساق تاريخية وأزلية وراسخة ولها الغلبة دائما، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق.

و- هناك نوع من (الجبروت الرمزي) ذي طبيعة مجازية
كلية/جماعية (وليست فردية كما هو المجاز البلاغي)، أي أنه
تورية ثقافية تشكل المضمرة الجمعي.

عيوبه

- ما يسمى بالنقد الثقافي، في الأدب، كما تجلي في بعض الكتابات العربية، ليس فتحاً نقدياً جديداً كما يتوهم البعض، بل في أحسن حالاته، لا يعدو أن يكون، قراءة إيديولوجية جديدة للنص الأدبي.
- الأحكام التعميمية على مجتمعات بكاملها انطلاقاً من أنساق واردة في مقاطع مجتزأة ومعزولة عن خطاباتها .
- العيوب الثقافية التي نجدها في أدب مجتمع ما قد نجدها في سائر المجتمعات وإن بأشكال مختلفة .
- يسقط أحيانا في الأحكام الأخلاقية والبحث عن القبحيات بعيدا عن جماليات التحليل .

للعرض مراجع